

الشَرِحُ والبَيانُ لحَديثِ حُذيفَةَ بنِ اليَمانِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في فِتَنِ الزَّمَان

لأَبِي عَائِش

عفَا الله عَنْه

محاضرة قبل سبع سنوات

إن الحمد لله, نحمده ونستعينه ونستغفره, ونعوذ بالله تعالى من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا, من يهده الله فلا مضل له, ومن يضلل فلا هادي له, وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له, وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله, صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد..

فهذا شرح وبيان على حديث الصحابي الجليل حذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في فتن الزمان, وهذا الحديث رواه الشيخان, وهو :

- **من الأحاديث المهمة العاصمة وقت الفتن**
- **ومن جوامع كَلِمِ النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ**
- **و اشتمل هذا الحديث على كثير من الأصول التي تُبين السني من المبتدع خاصة في وقت الفتن.**

يقول حُذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي, فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ وَنَحْنُ فِيهِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ. قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ. فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ ودُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ: قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ. فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ

تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».

وعند مسلم في المتابعات أن حُذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: « قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا بِشَرٍّ. فَجَاءَ اللهُ بِخَيْرٍ فَنَحْنُ فِيهِ، فَهَلْ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: هَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الشَّرِّ خَيْرٌ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: فَهَلْ وَرَاءَ ذَلِكَ الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ. قُلْتُ: كَيْفَ؟ قَالَ: يَكُونُ بَعْدِي أَئِمَّةٌ لَا يَهْتَدُونَ بِهُدَايَ، وَلَا يَسْتَنُّونَ بِسُنَّتِي، وَسَيَقُومُ فِيهِمْ رِجَالٌ قُلُوبُهُمْ قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ. قَالَ: قُلْتُ: كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟ قَالَ: تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضُرِبَ ظَهْرُكَ وَأُخِذَ مَالُكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ».

هذا الحديث رواه البخاري في كتاب الفتن، باب **كيف الأمر إذا لم تكن جماعة**, وراه مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتاب الإمارة من صحيحه في باب **وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال, وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة.**

وهذا الحديث كما قلنا: حديث عظيم فيه الكثير من الفوائد والأصول التي تحتاج إليها الأمة أفراداً وجماعات, وفيه حرص أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على العلم وعلى ما ينفعهم, وعلى معرفة ما يقيهم من الفتن, ولذلك قال حُذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الحديث: «مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي».

والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما ترك شيئًا يقربنا من الجنة ويباعدنا عن النار إلا وقد بينه لنا حتى تركنا على البيضاء ليلها كنهارها كما هو معلوم.

وهذا ليس حالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقط بل هو حال جميع الأنبياء, فلم يكن نبيٌ قبل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلا كان حقًا عليه أن يبين لأمته الخير ليعملوا به وأن ينذرهم الشر ليجتنبوه كما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث عبد الله بن عمرو بن العاصي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في الصحيح.

ولا يُعقل أن يُبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنا أموراً مثل دخول الخلاء وكيف ننام وكيف نأكل وكيف نشرب ولا يبين النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لنا سُبل النجاة وقت مجيء الفتن ووقت حاجة الناس إلى من يرشدهم وما ينجيهم من هذه الفتن العاصفة.

فلا شك أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد بيَّن كل ذلك خير بيان وكذلك أصحابه من بعده و من تبعهم بإحسان من السلف الصالحين.

وهنا نقطة ينبغي أن ننتبه لها وهي: أن الذي روى لنا هذه الأحاديث أعني أحاديث الصفات وأحاديث العقيدة وأحاديث الفتن هم الرواة الذين رووا لنا أحاديث الأحكام, فلماذا نقبل قولهم في أحاديث الأحكام ونقول: سمعنا وأطعنا وعلى العين والرأس, فإذا جاءت هذه الأحاديث التي تخالف هوى بعض الناس أو تخالف تعصُبَهم لجماعتهم أو حزبهم أو لشيخهم أو لغير ذلك رُدَّت أو طُعن في سندِها أو أُوِّلت على غير مراد الشرع أو غير ذلك من الأمور التي ليست على منهاج أهل السنة والجماعة؟

الواجب أن يكون الميزان واحدًا في التعامل مع أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, **فمن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وعلينا التسليم كما قال السلف**, لا نعارض آية أو حديثًا من أحاديث النبي

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذوقنا ولا وجدنا ولا عقولنا ولا لقول أحدٍ كائنٍ من كان, كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في أن من استبان له سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يجوز له أن يعارضها بقول أحدٍ كائنٍ من كان.

وكما قال إمام الأئمة ابن خزيمة رَحِمَهُ اللَّهُ: أنا عبدٌ لحديث رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أي مطيع لا يعصي أبداً.

ومن هذه الأحاديث التي ينبغي للمرء أن يتجرد لها وأن ينظر في معانيها حتى يسلم من الفتن: حديث حُذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ, هذا الحديث العظيم الذي يرويه خبير الفتن, كان يعلم مواقع الفتن وكان يعلم أسماء المنافقين, وسأل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما في هذا المجلس عن الشر مخافة أن يُدركه.

وكذلك ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فهو خبير الفتن الذي طبق أحاديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خير تطبيق خاصة في الفتن كما سيأتي.

حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لم يُعمَّر كثيرًا فمات مبكرًا, وأما ابن عمر فقد عُمِّر طويلًا ورأى الناس منه استنانًا عجيبًا بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خاصة في أوقات الفتن.

المهم أن حُذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الحديث يقول: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي», وهذا فيه أن طالب العلم يجوز له أن يسأل عن أمور لم تقع خشية فوات العلم وخشية موت العالم كما ذكر ذلك الحافظ بن حجر في شرحه على هذا الحديث.

وليس هذا من المسائل المذمومة التي ذمها السلف وكالسؤال عن أمور مفترضة لم تقع ليس تحتها كثير علم, فليس هذا منها, فقال حُذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

«يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ وَنَحْنُ فِيهِ»، وهذه الجاهلية التي ذكرها حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في هذا الحديث: هي الجاهلية المطلقة، وهي ما كانت قبل مبعث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فكان فيها من عبادة الأصنام ومن انتشار الفواحش ومن قطع الأرحام، وكان القوي يأكل الضعيف وكان يسيئُون الجوار وكانوا يئِدون البنات ويأتون المحرمات ويأكلون الميتة، وكانوا يفعلون غير ذلك من الأمور العظام كما جاء في كلمة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه أمام النجاشي.

فجاء الله عَزَّ وَجلَّ بهذا الخير، جاء بالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الذي جاء بالقرآن والسُنة, وجاء بالعلم النافع والعمل الصالح، أرسله الله عَزَّ وَجلَّ كما يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ في الاقتضاء: **إلى الخلق على فترة من الرُسل، وقد مقت أهل الأرض عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب.**

والناس إذ ذاك, يعني: في هذه الفترة أحد رجلين:

- **إما كتابيٌ معتصم بكتاب إما مُبدل وإما منسوخ وإما بدين دارس بعضه مجهول وبعضه متروك**
- **وإما أُميٌ من عربي وعجمي مُقبل على عبادة ما استحسنه وظن أنه ينفعه من نجم أو وثن أو قبر أو تمثال أو غير ذلك والناس في جاهلية جهلاء.**

حتى هدى الله تبارك وتعالى الناس ببركة نبوة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ**, وبما جاء به من البيات والهدى هداية جلَّت عن وصف الواصفين وفاقت معرفة العارفين، حتى حصل لأمته المؤمنين به عمومًا ولأولي العلم منهم خصوصًا من العلم النافع والعمل الصالح والأخلاق العظيمة والسُنن المستقيمة ما لو جُمعت حكمة سائر**

الأمم عِلمًا وعملًا الخالصة من كل شوب إلى الحكمة التي بُعث بها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتفاوتتا تفاوتًا يمنع معرفة قدر النسبة بينهما.

فلله الحمد كما يُحب ربنا ويرضى، فهذه نعمة عظيمة, بعثة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هذه الأمة واصطفاء الله عَزَّ وَجلَّ هذه الأمة لكي يبعث إليها نبيها صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذه نعمة عظيمة وشرف عظيم لهذه الأمة.

فعلى المرء أن يدرك هذه النعمة وأن يتمسك بغرز نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهذا الذي فيه الهدايات وهذا الذي فيه النجاة من جميع الفتن- من فتن الشهوات وفتن الشبهات، أما من يستبدل ذلك بالآراء والعواطف والوجد والذوق وغير ذلك من أقوال الرجال وزبالة الأفكار فإنه في خسران مبين، ولذلك يهلِك ولا يبالي الله تبارك وتعالى به.

فحذيفة يذكر هذه النعمة يقول: «يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ، فَجَاءَنَا اللهُ بِهَذَا الْخَيْرِ فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ فقَالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَعَمْ»، قال في بعض روايات هذا الحديث الصحيحة قال: «فَمَا الْعِصْمَةُ؟»، أي: من هذا الشر-الذي يعقب موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «السَّيْفُ»، فقال: فهل بعد السيف من تقية أو بقية؟ قال: «نَعَمْ هُدْنَةٌ».

وهذا الشر الذي حصل بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو ارتداد أقوام عن دين الله، فإنه بعد موت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ارتدت العرب وجحدوا فرضية الزكاة، ومنهم من منعها بُخلًا، فأجمع أصحاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على قتالهم, وهذه التي عُرفت بحروب الرِدَّة، فكان السيف وكان قتالهم تحت إمرة الخليفة

الراشد الصديق أفضل الناس بعد الأنبياء أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كان في هذا القتال (العصمة).

ولذلك لما سُئل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «فَمَا الْعِصْمَةُ»، يعني في هذا الشر، قال: «السَّيْفُ»، يعني: السيف الذي وضعه أمير المؤمنين وخليفة المسلمين أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في رقاب هؤلاء المرتدين، فكان جهادًا في سبيل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ تحت راية شرعية واضحة، وإمرة أمير مسلم، لا جهاد فتنة كما يفعل الخوارج في بلاد الإسلام.

قال: فهل بعد السيف من تقية أو بقية؟ قال: «نَعَمْ هُدْنَةٌ»، ونحن نعلم الذي حدث بعد ذلك من مقتل عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وقد كان عمر الباب الحاجز بين أمة الإسلام والفتن، فبكسر هذا الباب بدأت الفتن تتوغل في أمة المسلمين، فكان من نتائج هذه الفتن أن قُتل عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على يد الخوارج أتباع عبد الله بن سبأ.

وكان شعارهم الذي هو شعارهم في كل زمان ومكان الشعار البراق أنهم يريدون تحكيم الشريعة وأنهم يريدون رد المظالم إلى أهلها, ولم يكتب الله تبارك وتعالى على أيديهم خيرًا قط، لأن الله عَزَّ وَجلَّ لا يُصلح هذه الأمة بعمل المفسدين, فقتلوا عثمان ووضعوا السيف في هذه الأمة ولم يُرفع السيف إلى الآن.

ثم ازدادت الفتن وكان ما كان من الخلاف الذي وقع بين أهل الشام والحجاز والعراق, ووقع ما وقع من خلاف بين الصحابة, وكلهم مأجورون إن شاء الله في ذلك لأنهم اجتهدوا، فمنهم من أصاب أجرًا، ومنهم من أصاب أجرين.

ثم ما كان بعد ذلك بعد موت علي وقتله شهيداً رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ على يد عبد الرحمن بن مُلجِم الخارجي, أن تنازل الحسن بن علي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لمعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ تنازل له عن المُلك وعن الخلافة فيما سُمي بعام الجماعة.

وأثنى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ على فعل الحسن فقال: «**إِنَّ ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ يُصْلِحُ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ فِئَتَيْنِ عَظِيمَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِين**»، وهذا ثناء عظيم من النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ, فلما تنازل الحسن ولم يكن راغبًا في الإمارة جُعلت آخر خلافة في نسله.

فالمهدي الذي يكون من نسل النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ويواطئ اسمه اسم النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، والذي يصلحه الله في يوم وليلة إلى غير ذلك من الصفات التي وردت فيه هو من نسل الحسن رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ.

فلما لم يطلب الحسن الإمارة ورغب عنها إصلاحًا لحال الناس وجمعًا للكلمة جعل الله عَزَّ وَجلَّ آخر خليفة في هذه الأمة من نسله لا من نسل الحسين الذي خرج بعد أن غُرِّر به فقُتل مظلومًا شهيدًا رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ وعن أخيه وعن سائر أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

وقد حذَّره كثير من الصحابة من مغبَّة هذا الخروج ولكنه أحسن الظن في أهل العراق فكان ما كان من قدر الله تبارك وتعالى.

قال: «**قُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ. قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ**».

قال شيخ الإسلام: وهذا جاء مفسرًا في قوله: «**صُلْحٌ على دَخَنٍ**»، يعني: في بعض روايات هذا الحديث: «**وَجَمَاعَةٌ عَلَى أَقْذَاءٍ فِيهَا, وَقُلُوبٌ لَا تَرْجِعُ إِلَى مَا**

كَانَتْ عَلَيْهِ»، فالمراد بهذا الخير: ما حصل في عام الجماعة, ولكن هذا الصُلح كان صلحًا على دخن وفي النفوس ما فيها مما حدث قبل ذلك.

وهؤلاء الذين ذكرهم من الأئمة الذين يستنون بغير سُنة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ويهدون بغير هديه تعرف منهم وتُنكر هم الأئمة الذين خلفوا الولاة العدول من الخلفاء الراشدين ومن أصحاب النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، كمعاوية بن أبي سفيان وكذلك من جاء بعده كعمر بن عبد العزيز.

فهؤلاء الأئمة كانت منهم هنَّات ومخالفات فمستقل ومستكثر، كانت منهم بعض الأمور التي خالفوا فيها سُنة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، واهتدوا فيها بغير هدي النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فمنهم: من كان يؤخِّر الصلاة جدًا عن وقتها كما هو حال كثير من أمراء بني أُمية, ومنهم: كذلك من دعا إلى بدع كما هو الحال فيمن دعا إلى ذلك من أمراء الدولة العباسية, من الدعوة إلى خلق القرآن وحصول الفتنة المعروفة التي أُوذي فيها من أُوذي من أهل السُنة والجماعة من ضرب وتقتيل وغير ذلك.

والحمد لله الذي أبقى لنا سيرة هؤلاء ليبينوا لنا ويعلِّمونا ما نصنعه في مثل هذه الفتن، إذا كان هناك جور وظلم من جهة الدنيا أو من جهة الدين كيف نَثبت ونطبق سُنة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ونصبر حتى يستريح بَرٌّ أو يُستراح من فاجر.

وكذلك نقدم المصلحة العليا من الأمن من سفك الدماء، ومن تهييج السوقة والدهماء لأن الأمر قريب، ولابد أن يُغير الله تبارك وتعالى الحال ولكن:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11].

والله عَزَّ وَجلَّ إذا ابتلى الناس بملوكهم وأمرائهم فإنما يبتليهم من أجل أن يعودوا إلى الله عَزَّ وَجلَّ وأن ينظروا في حالهم، في طاعاتهم، في معاصيهم، أن يؤبوا وأن يعلموا أن الولاة والأمراء من جنسهم ومن طينتهم.

وأن الله عَزَّ وَجلَّ ما سلط عليهم هؤلاء إلا لتقصيرهم، فعليهم بالتوبة، فمثل هذه الأمور لا تُستدفع بالسيوف ولا بالثورات ولا بالاعتصامات ولا بالخروج، ولكن تُستدفع بالتوبة والأوبة إلى الله تبارك وتعالى كما جاء عن الحسن البصري رحمه الله وهو يخاطب من أراد الخروج على الحجاج.

فقال: «قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ»، وهذا الإنكار بيَّنته سُنة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فالنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لما قال كما في حديث أم سلمة كذلك في كتاب الإمارة عند الإمام مسلم لما قال: «إِنَّهُ يُسْتَعْمَلُ عَلَيْكُمْ أُمَرَاءُ فَتَعْرِفُونَ وَتُنْكِرُونَ، فَمَنْ كَرِهَ فَقَدْ بَرِئَ، وَمَنْ أَنْكَرَ فَقَدْ سَلِمَ، وَلَكِنْ مَنْ رَضِيَ وَتَابَعَ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَلَا نُقَاتِلُهُمْ؟ قَالَ النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: لَا، مَا صَلَّوْا»، يعني: ما داموا مسلمين، أَيْ مَنْ كَرِهَ بِقَلْبِهِ وَأَنْكَرَ بِقَلْبِهِ.

وأما الإنكار عليهم باليد فهذا مما لا يجوز، وأما النصيحة لهم على المنابر والتشهير بهم وبأخطائهم فهذا مما لا يجوز، لأنه خلاف مقاصد الشرع من تسكين الدهماء وعدم إثارة الفتن وسفك الدماء، فالذي يسعى في ذلك يسعى في سفك الدماء وفي إثارة الفتن مما حذر منه النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

قال حُذيفة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: «قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ ودُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»، والناظر عباد

الله في قول النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ ودُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»، يرى أن الأمر يصير أشد من الأمر الذي قبله وأن الفتنة تزيد ويرقق بعضها بعضا.

وهذا يصدِّقُهُ حديث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ حديث عبد الله بن عمرو والذي قال فيه: «وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ مُهْلِكَتِي، ثُمَّ تَنْكَشِفُ، وَتَجِيءُ الْفِتْنَةُ فَيَقُولُ الْمُؤْمِنُ: هَذِهِ هَذِهِ»، وهكذا تأتي الفتن يرقق بعضها بعضًا، فمن استشرفها كما قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أخذته، ومن تمسك بهدي النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وهدي السلف الصالح قبله فهو الذي ينجو مهما اشتدت الفتن ومهما عصفت بالناس.

والنبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: «لَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ»، والمعنى الصحيح لحديث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هذا: أن الشر يزيد بفقد العلماء وبفقد العلم الشرعي النبوي فتختلط الأمور على الناس، فهذا هو الذي يزيد به الشر، لا بقلة الطعام والشراب وجور السلطان وغير ذلك.

ولذلك لما فسر عبد الله بن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ هذا الحديث بيَّن أن الشر الذي يزيد إنما هو بسبب فقد العلماء، وهذا يحُل لنا إشكالًا يورده البعض وهو أن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «لَا يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ إِلَّا وَالَّذِي بَعْدَهُ شَرٌّ مِنْهُ»، فما لنا نرى زمان عمر بن عبد العزيز خير من زمان الحجاج بن يوسف وهو بعده؟

فنقول ردًا على هذا الإشكال: إننا لو نظرنا في حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أو في أثر ابن مسعود الذي فسر به هذا الشر لعلمنا الجواب، وهو أن العلماء وأن العلم والهدي النبوي كان منتشرًا في عهد الحجاج بين الناس أكثر من انتشاره في

عهد عمر بن عبد العزيز, وذلك لكثرة التابعين وفيهم بعض أصحاب النبي الأمين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهذا لم يكن بهذه الكثرة في عهد عمر بن عبد العزيز, فالشر الوارد في هذا الحديث يُقصد به قلة العلماء.

ولذلك بيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن هلاك الناس هو بفقد العلماء, حتى إذا لم يبقِ الله عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جُهالًا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا، فنسأل الله السلامة والعافية.

قال: **«قُلْتُ: فَهَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ، فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ ودُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا»**، وهذا الشر الذي ذكره النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث وهؤلاء الدعاة هم دعاة الضلالة، يكثُرون في آخر الزمان.

ولذلك قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في هذا الحديث عند أحمد في المسند: **«ثم تنشأ دعاة الضلالة»**، والمقصود بدعاة الضلالة في هذا الحديث خاصة: الخوارج سفهاء الأحلام، حدثاء الأسنان، الذين يقولون من قول خير البرية ومع ذلك هم شر الناس، شر الخلق والخليقة، ما وصف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قومًا بهذا الوصف, وما ذكر فيهم مثل هذا الوعيد: **«لَئِنْ أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ وَثَمُودَ»**، فالدعاة المقصودون في هذا الحديث: هم الخوارج كما قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ ونقل ذلك ابن حجر في الفتح، وذلك أن الحديث يتكلم عن الأمراء هؤلاء الذين يستنون بغير سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويهدون بغير هديه.

فالنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحذر أن يكون ذلك تَكِأَةً لبعض الناس أن يخرجوا عليهم وأن يثيروا الفتن وأن ينزعوا اليد من الطاعة، وإنما على الناس أن يصبروا

وألا يطيعوهم في هذا المنكر، فإنه لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فإذا أُمِرَ المرء بمعصية فلا سمع ولا طاعة، ولكن لا يحمل المرء على نزع اليد من الطاعة وعلى الخروج عليهم ونقض بيعتهم، بل علينا أن نعصيهم في تلك المعصية وأن نكره ذلك.

وأما إن أمرنا بطاعة أو إن أمرنا بمباح فنقول: سمعًا وطاعة، فأمر الحاكم بالمعصية ليس من أسباب الخروج عليه لأنه بذلك يكون فاسقًا, والفسق لا ينهض ولا يكون سببًا للخروج عليه، ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمن أمرنا بمعصية قال: «**لَا تُطِيعُوهُ**»، وقال: «**إِنَّمَا الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ**».

وأحاديث السمع والطاعة في غير معصية الله أحاديث متواترة كما ذكر ذلك غير واحد من أهل العلم كالشوكاني وصديق حسن خان وغيرهما من أهل العلم، ذكروا أن هذه الأحاديث متواترة.

فتنشأ دعاة الضلالة من الخوارج يجدون متكئًا لهم لدعوة الناس للخروج، فيزينون للناس الخروج من أجل البطون والأفواه ومن أجل ما يزعمون من تحكيم الشريعة، وهم من أبعد الناس عن تحكيم شرع الله عَزَّ وَجلَّ.

ولو طبقوا شرع الله لطبقوه على أنفسهم من إعمال هذه الأحاديث ومن النظر لكلام الأئمة المتقدمين حتى يضعوها في موضعها اللائق بها.

أما هؤلاء الخوارج:

- فإما أن يفسروا هذه النصوص بأهوائهم وآرائهم المجردة
- وإما أن يردوها وأن يضعفوها

- وإما أن يتهموا ويُشغِّبوا على من ينقل هذه النصوص بأنهم عملاء السلاطين وعلماء السلاطين كذلك وعبيد البيادة وغير ذلك من الأمور التي إذا سمعها العامي نفر عن سماع الحق.

فهم في كل زمان ومكان يُشغِّبون على أهل العلم ويُشغِّبون على أهل السُنة والجماعة، ولا يُعظمون الأخبار الواردة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وهم من قديم يتهمون العلماء بأنهم لا علاقة لهم بفقه الواقع وأنهم غاية أمرهم أنهم يحسنون الكلام في الطهارة والوضوء والحيض والنفاس.

بل بعضهم يقول عن علمائنا المتقدمين والمتأخرين ممن هم على الجادة وعلى طريق السلف: إن علمهم لا يجاوز سراويل امرأة نسأل الله العافية، وما ذلك إلا لحقدهم على علماء السُنة الذين جعلهم الله عَزَّ وَجلَّ غُصَّةً في حلوقهم يكبتون شرهم في كل زمان.

فنسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يرحم الأموات منهم وأن يُبقي الأحياء وأن يُطيل في أعمارهم على برٍ وتقوى حتى ينتفع بهم الناس وحتى ينجو الناس من هذه الفتن.

الشاهد: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر دعاة الضلالة وذكر الخوارج، وفي الرواية التي هي عند مسلم قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وصف هؤلاء قال فيهم: «قُلُوبُ الشَّيَاطِينِ فِي جُثْمَانِ إِنْسٍ»، عياذاً بالله, فلما سمع حذيفة ذلك قال: «يَا رَسُولَ اللهِ، صِفْهُمْ لَنَا», حُذيفة يريد من نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن يُجلِّي الأمر وأن يبين حالهم ووصفهم حتى يتقي كل ذلك.

فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا», فهذا وصف الخوارج في كل زمان ومكان أنهم من جلدتنا أي: لونهم كلوننا من قومنا,

يتكلمون باللسان العربي أو يتكلمون بلسان الشريعة, يعني يقولون: قال الله, قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, يستدلون على فعالهم بالكتاب والسنة كما هو الحال عند كثير من الخوارج, ولكن كيف يستدلون؟ يستدلون بأمور:

- إما أن يورِدوا أحاديث وآيات في غير موردها اللائق بها.
- وإما أن يستدلوا بأدلة عامة كلية على قضايا جزئية ولا يفسرونها بتفسير السلف ولا ينظرون إلى ما قاله السلف في مثل هذه الآيات أو الأحاديث كما فعلوا مع قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة: 44], ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة: 45], ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: 47].

فطعنوا في الأثر المروي عن عبد الله بن عباس وضعَّفوه ولم يتلفتوا إلى إجماع المفسرين على القول بما قال به ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأعرضوا عن كل ذلك, فتجدهم يلبِّسون على الناس ويتكلمون بألسنتنا بلسان الشريعة, فهم في الظاهر على ملتنا- أصحاب لحى, وكذلك ثيابهم قصيرة, وكذلك يقولون: من قول خير البرية صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

في الظاهر على ملتنا وفي الباطن مخالفون قلوب الشياطين في جثمان الإنس, ولذلك يغوون الكثير والكثير نسأل الله العافية, بما يزينه الشيطان على ألسنتهم وهيئتهم.

فلما سمع حذيفة ذلك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: «يَا رَسُولَ اللهِ، فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ», وجماعة

المسلمين: هي الجماعة التي تكون على كتاب الله وعلى سنة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بفهم سلف هذه الأمة.

وجماعة المسلمين: هي الجماعة التي تكون مع الإمام, يكونون مع إمامهم يسمعون لهم ويطيعون في غير معصية الله, لأن الجماعة لا تكون إلا بذلك وإلا كانت الفُرقة والفتنة وسفك الدماء.

«وَإِمَامَهُمْ», يعني: أميرهم, فهم الذين يكونون مع أميرهم يُسْدُون إليه النصيحة, يحملونه على فعل الخير وعلى ترك المنكر, ينصحونه بالطريقة الشرعية التي جاءت في كتاب الله وفي سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ, ﴿ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴾ [طه: 44], وهذا في كافر قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ [النازعات: 24], فكيف برجل مسلم؟

وكذلك ما جاء في سنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «مَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ نَصِيحَةٌ لِذِي سُلْطَانٍ فَلَا يُكَلِّمْهُ بِهَا عَلَانِيَةً، وَلْيَأْخُذْ بِيَدِهِ فَلْيَخْلُ بِهِ، فَإِنْ قَبِلَهَا قَبِلَهَا، وَإِلَّا كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ وَالَّذِي لَهُ».

وكذلك ما جاء عن كثير من السلف في كيفية نصيحة ولي الأمر وعدم الإنكار عليه علانية, بل نقل بعضهم وهو صاحب الأوسط ابن المنذر رَحِمَهُٱللَّهُ الإجماع على أن السلطان مستثنى من قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ».

فعلى المسلم أن يلزم جماعة المسلمين وأن يلزم إمامهم وألا تكون مبايعته لهذا الإمام من أجل الدنيا, ألا يعطيه صفقة يده من أجل الدنيا, فإن أعطاه رضي

بذلك وإن منعه سخط عليه وخرج عليه, فهذا ليس حال السني السلفي, ليس حال المسلم المستقيم.

ولكن على المسلم المستقيم أن يعمل بسنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَتَجِدُونَ أَثَرَةً عليكُم وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا», يقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في مثل هذه الحالة: «أَدُّوا الَّذي عليكُمْ وَسَلُوا اللَّهَ الَّذِي لَكُمْ», يقول: «فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ».

يأمرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر, فهل هذه سلبية من النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ هل هذا خنوع كما يخرج ذلك من أفواه بعض من لا يعقِل؟

كما قال بعضهم عن حديث النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السمع والطاعة: «وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ», كما سيأتي, يقول: إن هذا رواه عميل عن خائن عن كذا عن كذا عن الشيطان الرجيم, فمن الذي ذكر هذا الحديث؟

رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هو الذي ذكر هذا الحديث, وهو حديث صحيح وإن رغمت أُنوفُ أهل البدع, فما من عالم سُني إلا وهو يصحح معنى هذا الحديث, وإن تكلم بعضهم في سنده ، ولكنهم على تصحيحه من جهة أن معناه يؤيده الكثير والكثير من الأحاديث الواردة في الصحيحين وفي غير الصحيحين.

ومن الإجماعات المنقولة من أول هذه الأمة إلى آخرها على السمع والطاعة في غير معصية الله, وإن استأثر بالمال وإن أخذ مالك وضرب ظهرك, ولكن لا سمع ولا طاعة في معصية الله, ولكن هذا لا يحملنا على نزع اليد من الطاعة ونقض البيعة، ولكن نصبر كما علمنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: «تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ», فهذا فيه لزوم طاعة من تولى عليك بالرضا, يعني: بالاختيار أو بالتنصيب أو بالغلبة, «وَإِنْ أُمِّرَ عَلَيْكُمْ عَبْدٌ حَبَشِيٌّ مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ», فهذا كذلك يُسمع له ويُطاع في غير معصية الله.

وهذه الزيادة التي يفرح بها من يفرح من أهل البدع من قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: «وَإِنْ كَانَ عَبْدًا مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ مُجَدَّعَ الْأَطْرَافِ مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ», فيقولون: طالما أنه لم يُقم كتاب الله تبارك وتعالى فينا فلا سمع ولا طاعة, نقول: نعم, لا سمع ولا طاعة كما جاءت الأحاديث الأخرى: «الطَّاعَةُ فِي الْمَعْرُوفِ», ولا يحملنا هذا على نزع اليد وعلى إنكار إمرته وعلى الخروج عليه, وذلك لأمور:

- **أما الأمر الأول**: فإن دلالة هذا الحديث من دلالة المفهوم, فالنبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: «مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ», فلو أعملنا دلالة المفهوم صار المعنى: فإن لم يقم فيكم كتاب الله فلا سمع ولا طاعة ولا يعني هذا نزع اليد ونقض البيعة، بل غاية الأمر مخالفته فيما خالف فيه الشرع.

فهو أولًا: يوافق الأحاديث الأخرى.

- **وثانيًا**: على فرض صحة هذا المعنى, يعني: من نزع اليد من الطاعة فهذا من دلالة المفهوم, وعندنا عشرات الأحاديث من دلالة المنطوق.

وكما هو معلوم في علم الأصول في طرق الترجيح: إن لم نستطع الجمع بين الأحاديث أن دلالة المنطوق تُقدَّم على دلالة المفهوم, لأن دلالة المنطوق نطق بها النص, أما دلالة المفهوم فهي مستنبطة.

فـما نطق بـه النص لا يحتمـل إلا معنى واحـدًا يُقـدم على مـا فهمناه, ودلالـة المنطـوق لم يختلـف عليهـا أحـد مـن اهـل العلـم بخـلاف دلالـة المفهـوم فقـد رد الاحتجاج بها بعض العلماء كالأحناف.

- **وثالثًا:** أننا لو أعملنا دلالة المفهوم الواردة في هذا الحديث فإنه لن يَسلم لنا أميرٌ بعد الخلفاء الراشدين, لماذا؟ لأننا سنقول: «مَا أَقَامَ فِيكُمْ كِتَابَ اللَّهِ», وهذه الإقامة لكتاب الله إما أن تكون تامة وإما أن تكون ناقصة, فإن أردتم الإقامة التامة فلن يَسلم لنا أمير.

ومن ثَمَّ، وجب على كل من عايش أميرًا على هذه الصورة أعني الأمراء الذين تركوا بعض هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ = وجب على كل من عايشهم أن يخرج وأن ينزع يدًا من طاعة.

فلو نظرنا في حال الأئمة الذين عايشوا وعاصروا مثل الدولة الأموية أو الدولة العباسية لو نظرنا إلى حالهم كمثل أحمد بن حنبل ومحمد بن إسماعيل وإسحاق بن رهويه وكذلك كمثل الأوزاعي ومالك والزهري قبل الطبقة التي ذكرتها والليث بن سعد وعطاء بن أبي رباح لجهَّلنا هؤلاء, لو نظرنا إلى حالهم لقلنا: إنهم خالفوا هدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وكانوا من علماء السلاطين, لماذا؟ لأن دولة بني أُمية ودولة بني العباس كان فيها بعض الهنَّات, ومع ذلك فسيرة هؤلاء الأئمة لا تخفى على من له مشاركة في العلم والاطلاع كما يقول الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل شيخ رَحِمَهُ اللَّهُ.

فأكثر ولاة أهل الإسلام من عهد يزيد بن معاوية حاشَا عمر بن عبد العزيز ومن شاء الله من بني أمية قد وقع منهم من الجراءة والحوادث العظام والخروج

الفساد في ولاية أهل الإسلام, ومع ذلك فهؤلاء المذكورون سيرتهم معروفة لا ينزعون يدًا من طاعة فيما أمر الله به ورسوله من شرائع الإسلام وواجبات الدين.

وانظر إلى حال الحجاج وما اشتهر به من الظلم والإسراف في سفك الدماء وانتهاك الحرمات وغير ذلك, وانظر إلى حال ابن المسيب والحسن البصري وابن سيرين وإبراهيم التيمي وأشباه هؤلاء مع الحجاج وغيره من الأمراء كيف كانت سيرتهم؟

لا ينزعون يدًا من طاعة مع بغضهم وكُرههم لفعل الحجاج بل وللحجاج نفسه, وهذا فيه رد على من يتهم الذين يتكلمون بمثل هذه الأحاديث فيتهمونهم بأنهم يقدسون الحكام وأنهم عبيد البيادة و.....

أقول: لا والله الذي يدفعنا إلى ذلك الاقتداء بسنة النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وبهدي سلف هذه الأمة.

وهناك قصة صحيحة مشهورة عن الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ, فكم يبغض الحجاجَ بن يوسف ومع ذلك كان ينهى عن الخروج عليه, وكان يقول: الدماء الدماء, الدماء الدماء, الحجاج عقوبة من الله, والعقوبة لا تُدفع بالسيف وإنما تدفع بالتوبة, ثم ماذا؟ هل كان الحسن البصري يحب الحجاج ويُقدسه ؟ ما كان الأمر كذلك.

والذي يدل على ذلك هذه القصة الصحيحة: أن القارئ الذي كان يؤم الحجاج في رمضان, لما توفي الحجاج رآه هذا القارئ في المنام فقال له: ماذا فعل

الله بك؟ قال: قتلني بكل نفس قتلتها مرة, فقال له هذا القارئ: فماذا ترجو؟ قال: أرجو ما يرجوه أهل لا إله إلا الله, يعني: من المغفرة.

فقص هذا القارئ القصة على ابن سيرين وكان من مؤوِّلي الرُؤى, فقال ابن سيرين: إني لأرجو له ما يرجوه أهل لا إله إلا الله.

ثم قص القصة على الحسن البصري وهو الذي كان ينهى عن الخروج عليه, فقال: والله إني لا أرجو له ما يرجوه أهل لا إله إلا الله, فهل هذه الكلمة التي خرجت من فم الحسن البصري تنبئ عن حب الحسن البصري للحجاج بن يوسف لما كان ينهى الناس عن الخروج عليه؟

لا والله, وإنما كان فعلهم نابعًا من اتباع سنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ, وكذلك من النظر إلى ما تحدثه الفتن من البلايا ومن سفك الدماء, والذي يريد أن يعلم واقع ذلك فلينظر إلى ما حولنا من بلاد المسلمين التي نجح أعداء الدين في تفكيكها وتفكيك جيوشها وزرع الفتن بينها فصار يأكل بعضهم بعضًا والعدو في مأمن.

ولذلك كان لزوم جماعة المسلمين وإمامهم أصلًا من أصول أهل السنة والجماعة أصَّله وبينه علماؤنا في كتب الاعتقاد.

فقال حُذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لرسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«كَيْفَ أَصْنَعُ يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ؟»**, وهذا في رواية مسلم, قَالَ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«تَسْمَعُ وَتُطِيعُ لِلْأَمِيرِ، وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ، فَاسْمَعْ وَأَطِعْ»**, هذا رواه مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ متابعة وهو حديث صحيح صححه أهل العلم.

ولا يُلتفت إلى من ضعَّفه من أهل البدع, فإن العلماء تكلموا على هذا الحديث, وممن تكلم عليه شراح هذا الحديث, ومنهم الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ, فقد قال: **قوله عن أبي سلَّام, قال: قال حذيفة بن اليمان**, قال النووي: قال الدارقطني: هذا عندي مرسل لأن أبا سلَّام لم يسمع حذيفة, وهو كما قال الدارقطني: هكذا يقتصر أهل البدع إذا نقلوا هذا النقل يقتصرون إلى هذا الحديث ولا ينقلون باقي الكلام.

قال النووي: لكن المتن صحيح متصل بالطريق الأول, وإنما أتى مسلم بهذا متابعة كما ترى, وقد قدمنا في الفصول وغيرها أن الحديث المرسل إذا روي من طريق آخر متصلًا تبينا صحة المرسل وجاز الاحتجاج به ويصير في المسألة حديثان صحيحان, وهذا الحديث رواه أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مسنده ورواه ابن أبي شيبة من غير هذا الطريق.

فالذين رووه ممن ذكرنا كابن أبي شيبة وأحمد وكذلك أبو داود والبزَّار وأبو نُعيم وغير هؤلاء ممن ذكروا الشاهد أو لم يذكروه رووه من طريق سُبيع بن خالد اليشكُري.

قال: أَتَيْتُ الْكُوفَةَ فِي زَمَنِ فُتِحَتْ تُسْتَرُ، أَجْلُبُ مِنْهَا بِغَالًا، فَدَخَلْتُ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا صَدْعٌ مِنَ الرِّجَالِ (مجموعة من الرجال)، وَإِذَا رَجُلٌ جَالِسٌ تَعْرِفُ إِذَا رَأَيْتَهُ أَنَّهُ مِنْ رِجَالِ أَهْلِ الْحِجَازِ، قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ فَتَجَهَّمَنِي الْقَوْمُ، وَقَالُوا: أَمَا تَعْرِفُ هَذَا؟ هَذَا حُذَيْفَةُ بْنُ الْيَمَانِ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ حُذَيْفَةُ: إِنَّ النَّاسَ كَانُوا يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنِ الشَّرِّ، فَأَحْدَقَهُ الْقَوْمُ بِأَبْصَارِهِمْ، فَقَالَ: إِنِّي أَرَى الَّذِي

تُنْكِرُونَ، إِنِّي قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ هَذَا الْخَيْرَ الَّذِي أَعْطَانَا اللَّهُ، أَيَكُونُ بَعْدَهُ شَرٌّ كَمَا كَانَ قَبْلَهُ؟ قَالَ: «نَعَمْ» قُلْتُ: فَمَا الْعِصْمَةُ مِنْ ذَلِكَ؟ قَالَ: «السَّيْفُ» قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ مَاذَا يَكُونُ؟ قَالَ: «إِنْ كَانَ لِلَّهِ خَلِيفَةٌ فِي الْأَرْضِ فَضَرَبَ ظَهْرَكَ، وَأَخَذَ مَالَكَ، فَأَطِعْهُ، وَإِلَّا فَمُتْ، وَأَنْتَ عَاضٌّ بِجِذْلِ شَجَرَةٍ»، قُلْتُ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «ثُمَّ يَخْرُجُ الدَّجَّالُ مَعَهُ نَهْرٌ وَنَارٌ، فَمَنْ وَقَعَ فِي نَارِهِ، وَجَبَ أَجْرُهُ، وَحُطَّ وِزْرُهُ، وَمَنْ وَقَعَ فِي نَهْرِهِ، وَجَبَ وِزْرُهُ، وَحُطَّ أَجْرُهُ»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَاذَا؟ قَالَ: «ثُمَّ هِيَ قِيَامُ السَّاعَةِ»، فهذا الحديث بهذه الرواية حديثٌ صحيح.

وكذلك مما يؤكد صحة هذه الرواية: الشاهد الذي جاء من حديث عُبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «اسْمَعْ وَأَطِعْ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ، وَإِنْ أَكَلُوا مَالَكَ وَضَرَبُوا ظَهْرَكَ»، وهذا رواه ابن حبان في صحيحه وابن أبي عاصم في السُنة وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ.

ومما يؤكد كذلك صحة هذا الحديث: ما جاء من قول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بسويد بن غفلة قال: قال لي عمر: « يَا أَبَا أُمَيَّةَ إني لأدري لعلي ألا ألقاك بعد عامي هذا فاسمع وأطع, وَإِنْ أُمر عليك عَبْدٌ حَبَشِي مجدَّع فاسمع له وأطع، وإِنْ ضَرَبَكَ فَاصْبِرْ، وَإِنْ حَرَمَكَ فَاصْبِرْ، وَإِنْ أراد أَمْرًا يَنْقِصُ دِينَكَ فَقُلْ: سَمْعٌ وَطَاعَةٌ، دَمِي دُونَ دِينِي ولا تُفارق الجماعة».

وهذا فيه أن المرء عليه السمع والطاعة في غير معصية الله, فإذا أمر بمعصية الله فلا سمع ولا طاعة وعليه ألا يفارق الجماعة، وهذا أثر صحيح كذلك رواه ابن أبي شيبة في المصنف والخلال في السُنة والآجري في الشريعة وغيرهم.

والشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ صحح هذا الحديث، صحح قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**فإذا رأيت يومئذ لله عَزَّ وَجلَّ في الأرض خليفة، فالزمه وَإِنْ ضَرَبَ ظَهْرَكَ وَأَخَذَ مَالَكَ**».

قد يقول قائل من هؤلاء: ولكن لا خليفة في الأرض اليوم؟

نقول: أجمع العلماء ونقل هذا الإجماع غير واحد كالإمام الشوكاني والإمام محمد بن عبد الوهاب رحمهم الله وغيرهما من أهل العلم: أنه إن كان هناك خليفة للمسلمين (أعني خليفة عام) فالسمع والطاعة له في غير معصية الله, وإن لم يكن هناك خليفة للمسلمين, بل كان هناك أمراء ورؤساء الدول كل منهم يحكم دولة بعينها وقطعة من أرض المسلمين فالسمع والطاعة على من ولاه الله عَزَّ وَجلَّ على هؤلاء.

فعلى من كان له أمير أو سلطان أو رئيس يحكم بلده وتعدد هؤلاء الرؤساء والأمراء المسلمون فعلى رعيتهم أن يسمعوا له وأن يطيعوا، وهذه المسألة عليها إجماع وهو إجماع القديم منذ أن أنشأ الأمويون دولتهم في الأندلس في وقت قيام الدولة العباسية، فالسمع والطاعة لكل ولي أمر تولى على المسلمين، وهذا إن لم يكن للمسلمين خليفة.

وأهل البدع يُشغِّبون ويقولون: إن أحاديث السمع والطاعة في الخلافة العامة، وكأنهم بذلك يريدون أن هذه الأحاديث لا يُعمل بها الآن، لا ينبغي أن يُعمل بها الآن، وهذا جهل منهم، فأحاديث النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صالحة ومُصلحة لكل زمان ومكان.

وهؤلاء هم من كانوا يأمرون الناس بقراءة هذا الباب (أعني باب الإمارة من صحيح مسلم) على الناس وقت ولاية الرئيس السابق محمد مرسي، قد كان القرضاوي يحث الناس ويحضهم على قراءة مثل هذه الأحاديث على الناس.

فلما انتهى أمرهم رجعوا ليقولوا للناس: إن هذه الأحاديث في الخليفة العام, أو أنها لا تصلح لهذا الزمان لأن حكام الزمان قد غيروا الشرع وكفروا بالله تبارك وتعالى، وهذا كله من الكذب والبهتان.

فإننا لا نقول: إن هؤلاء الحكام معصومون وبعيدون عن الذلل والخطأ، لا نقول بذلك، ولكن لا يقال: أن كل من حكم بغير ما أنزل الله فقد كفر كفرًا أكبر مخرجًا من الملة، فهذا قول الخوارج كما هو معروف.

فالذي يحكم بغير ما أنزل الله إن حكم بذلك استحلالًا، يعني: استحل ذلك، أو رأى جواز ذلك، أو رأى أن ذلك يساوي الحكم بما أنزل الله أو أفضل منه أو استبدله بالشرع ونسبه إليه كفر.

إن زعم أن هذا الحكم هو حكم الله تبارك وتعالى كما فعل التتار في الياسق، وكما فعل اليهود الذين نزلت الآية بسببهم: ﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ [المائدة: 44]، فإنهم بدلوا حكم الله ثم زعموا أن ذلك حكم الله، فإذا كان الحاكم حاله كحال هؤلاء، يقاس على حالهم، لأن العلة واحدة: أنه بدل وغيَّر ونسب ذلك للشرع فهذا الذي يكفر كفرًا أكبر.

وأنتم تزعمون أنكم على علم بدلالة الشريعة وكذلك بأصول الفقه، فيُقال لكم: هذا الحكم الذي هو في الآية الكريمة هب أنه في الكفر الأكبر:

﴿ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾، نقول: ما سبب نزول هذه الآية؟ وسبب نزول الآية داخل قطعًا في تفسيرها.

ثم إذا أردتم بعد ذلك أن تقيسوا حكام الزمان على هؤلاء نقول: لابد أن تكون العلة واحدة، أن تكون العلة التي في الأصل هي هي العلة التي في الفرع، فمَن مِن هؤلاء بدَّل أو حكم بغير ما أنزل الله ثم زعم أن ذلك حكم الله؟

ولذلك من حكم بغير ما أنزل الله مع علمه أن ذلك خلاف حكم الله تبارك وتعالى وأنه مُذنب وإنما حكم لشهوة أو لمال أو لدنيا فهذا من الكبائر، بل من أكبر الكبائر، ومفاسد ذلك لا يعلم مداها إلا الله تعالى، ولكنه لا يصل إلى درجة الكفر المخرج من الملة إلا في الحالات التي سبق ذكرها.

ولذلك لما قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ، يَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، وَيَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي»، هذا يدل على أنهم يحكمون في بعض الأمور بغير ما أنزل الله ولكن لشهوة، فأمرك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر والسمع والطاعة وعدم نزع اليد من الطاعة، تسمع في غير معصية الله.

فلا يُشكل علينا بعضهم بقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فإن رأيت يومئذ لله عَزَّ وَجلَّ في الأرض خليفة»، لأن الإجماع قد انعقد على السمع والطاعة لرؤساء الدول الإسلامية وأمرائهم.

هذا حديث عظيم كما قلنا، قال عنه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ بعد أن ذكره وذكر زياداته وطرقه قال: هذا حديث عظيم الشأن من أعلام نبوته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونُصحه لأمته.

وما أحوج المسلمين إليه للخلاص من الفُرقة والحزبية التي فرقت جمعهم وشتت شملهم وأذهبت شوكتهم، فكان ذلك من أسباب تمكن العدو منهم، وهذا والله هو ما يسعى العدو فيه جاهدًا ونجح في تنفيذ بعض مخططه في كثير من دول الإسلام.

قال: وهذا مِصداق قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: 46].

وقد جاء مطولًا ومختصرًا من طرق جمعت هنا فوائدها وضمنت إليه زوائدها في أماكنها المناسبة للسياق وهو للإمام البخاري في كتاب الفتن"، انتهى كلامه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فهذا حديث صحيح ثابت عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وليس هذا الحديث وحده هو الذي جاء في الصبر على جور الأئمة حتى يقال: إن هذا الحديث ضعيف، بل هناك عشرات الأحاديث كما قلنا، منها قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا»، فقال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد أن ذكر ذلك: «فَاصْبِرُوا حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»، ما قال: اصبروا عشرين عامًا، ثلاثين عامًا، خمسين عامًا، بل قال: «حَتَّى تَلْقَوْنِي عَلَى الْحَوْضِ»، وهذا فيه أن الصابر على جور الأئمة في غير معصية الله ممن يرد على حوض النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وكذلك ما جاء عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من قوله: «إِنَّكُمْ سَتَرَوْنَ بَعْدِي أَثَرَةً وَأُمُورًا تُنْكِرُونَهَا». قَالُوا: فَمَا تَأْمُرُنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أَدُّوا إِلَيْهِمْ حَقَّهُمْ، وَسَلُوا اللَّهَ حَقَّكُمْ».

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرًا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً.»، وقال: «مَنْ رَأَى مِنْ أَمِيرِهِ شَيْئًا يَكْرَهُهُ فَلْيَصْبِرْ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ شِبْرًا فَمَاتَ، إِلَّا مَاتَ مِيتَةً جَاهِلِيَّةً».

وقال عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "بايعنا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرةٍ علينا وألا ننازع الأمر أهله إلا أن نرى كفرًا بواحًا عندنا فيه من الله برهان".

وهي أحاديث متواترة كما قلنا، وهذه الأحاديث التي ذكرناها ذكرها الإمام مسلم رَحِمَهُ اللَّهُ في صحيحه.

فهذا مما يبين لنا أن هذا الأصل مما اتفق عليه أهل السُنة والجماعة وهو أصل قديم في كتب الاعتقاد التي كتبها المتقدمون.

وهذه المسألة من أهم المسائل التي خالفها جميع المبتدعة، فأهل البدع جميعًا يفزعون إلى السيف، ويخالفون خبر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأما أهل السُنة فهم الذين يتابعون النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ويتابعون سلف هذه الأمة، والعلماء قد ذكروا كما قلنا في كتب الاعتقاد ذلك الأمر، وتواتر نقل الإجماع على ذلك.

ولذلك قال البربهاري: والسمع والطاعة للأئمة فيما يحب الله ويرضى، وكذلك ذكر غيره كأحمد في أصول السُنة والآجري في الشريعة وكذلك ابن أبي زمنين وابن أبي عاصم، وكذلك ابن بطة في الإبانة، والإمام البخاري في معتقده، وعلي بن المديني، كل هؤلاء أئمة السُنة ذكروا هذا الأمر في اعتقادهم لأن الأمر دين، ويترتب على مخالفته شر عظيم.

لا نتكلم في هذا الأمر نُصرةً لشخص، أو طلباً لرضا أحد، ولكن من أجل أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيَّن ذلك أولًا، ومن أجل ما في لزوم جماعة المسلمين ومتابعة سُنة النبي الأمين من النجاة من الفتن.

قال حُذيفة: «**يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟**»، وهذا وقتَ انتشار الفتن وعدم وجود الإمام للمسلمين حين يتفرق الناس، وهذا حدث في فترة ما بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإنه لما مات معاوية لم يبايع المسلمون أحدًا، فبايع أهل الحجاز عبد الله بن الزبير, ثم بايع أهل الشام عبد الملك بن مروان, وكان ما كان بينهما من الفتن والقتال.

وفي كل ذلك كان عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وهو خبير الفتن لا يبايع واحدًا منهما، لماذا؟ لأن المسلمين لم يجتمعوا على إمام واحد ولكن تفرقوا، والأرض في ذلك الزمان كانت واحدة للمسلمين لم تكن بلداناً مقسمة كما هو الحال، فالأصل: أن يتولى عليهم إمام واحد ولا يوجد هذا الإمام وإنما هو نزاع.

فماذا كان يصنع عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، خبير الفتن مع ما يعلم من مكانة وفضل عبد الله بن الزبير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ؟

عبد الله بن الزبير صحابي بن صحابي بل أبوه حواري رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو من العشرة المبشرين بالجنة، وكان آية في الزهد والعبادة والعلم (أعني عبد الله بن الزبير) ومع ذلك لم يبايعه.

ولم يبايع عبد الملك, فكان يصلي خلف ابن الزبير وخلف الحجاج الذي هو أمير عبد الملك، إلى أن حدث ما حدث وقُتل عبد الله بن الزبير وصُلِبَ على يد

الحجاج عامله الله بعدله، فبايع عبد الله بن عمر- عبد الملك بن مروان وجمع أولاده على ذلك، وذكَّرهم بحديث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيمن يغدر في بيعته للسلطان.

فهل كان عبد الله بن عمر يحب عبد الملك مع ما يعلم من فعله بابن الزبير؟ ما كان يحبه ولكن هي السُنة التي تحمل المسلم على مخالفة الهوى والعاطفة, والنجاة لا تكون إلا بذلك.

فهنا قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سأله حذيفة: «يَا رَسُولَ اللهِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لِلْمُسْلِمِينَ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟»، ما قال له: فابحث عن فرقةٍ وانضم إليها كهذه الجماعات والأحزاب الكثيرة في هذا الزمان، وإنما قال: «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا»، وهذا فيه دليل على أن في أوقات الفتن تكثُر الجماعات والأحزاب.

فهذه الجماعات تُعتزل في أوقات الفتن، لماذا؟ لأنها ما نشأت ابتغاء مرضات الله وإنما نشأت لهوى وعاطفة وعصبية، «فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا، وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».

فهؤلاء الدعاة هم دعاة الفرق الضالة, أصحاب هذه الفرق التي أمر النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باعتزالها هم دعاة الفرق الضالة المذكورة في حديث الافتراق، لن ينجو إلا من كان على ما كان عليه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه، فاعتزل تلك الفرق؛ لأن الفتن شديدة والشبه خطافة والقلوب ضعيفة، ولا ينجو منا إلا من عصمه الله وهداه الصراط المستقيم.

بل إن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بيّن لنا أمرًا نحتاجه في هذه الأيام ونحن مقبلون على فتنة جديدة وهي ما تسمى: بثورة الجياع، النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال في هذا

الحديث: «وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ»، يريد أن يقول: ولو بلغ بك الجوع مبلغه, فلأن تموت وأنت عاضٌ على جذل شجرة، والجذل: هو العود الذي يُنصب لتحتك به الإبل، فهذا يبين لنا صعوبة الأمر وبلوغ الجوع بالناس مبلغه.

ومع ذلك يقول لك رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «فَأَنْ تَمُوتَ وَأَنْتَ عَاضٌّ عَلَى جِذْلِ شَجَرَةٍ، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ تَتْبَعَ أَحَدًا مِنْهُمْ»، هذا خير لك، فاصبر على الجوع، ولا تنضم لهذه الفرق ولا تشارك معهم في الفتن، إنما عليك أن تعتزل تلك الفرق كلها كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ».

فهذا أصل عظيم وحديث جليل من أحاديث النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما نُدندن على هذه الأحاديث من أحاديث السمع والطاعة لكثرة دندنة أهل البدع على ما يخالفها من الثورات والمظاهرات والخروج وغير ذلك.

فلما دندن هؤلاء دندنًا وأكثرنا من ذكرها، ولسنا ممن يتكلمون بمثل هذه الأحاديث فقط, ولكن لما تكلم الخوارج بما يضاد السُنة الثابتة في هذه الأحاديث بيَّنا سُنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

كما أنه لما تكلم القبوريون من الصوفية وغيرهم بما يضاد التوحيد حذرنا منهم وذكرنا الأحاديث التي تُبين أهمية التوحيد وتحذر من الشرك.

ولما تكلم العلمانيون في سُنة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وفي الدعوة إلى التحرر من هدي السلف ومن تراث السلف وتحرر المرأة وسفورها تكلمنا وبيَّنا عوارهم وبيَّنا فضائل الأئمة، وبيَّنا ما ينبغي للمرأة أن تكون عليه من حجاب شرعي ومن ابتعاد عن الاختلاط.

ولما تكلم الأشاعرة وغيرهم في أحاديث الصفات وأولوها وأنكروها بيَّنا عوارهم، فلا نتكلم في جانب بعينه ولكن نتكلم في سُنة النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في القول والعمل، في الاعتقاد والمنهج، في الصفات والأحكام وغير ذلك، لأن الناس لا يصلحون إلا بذلك.

ولا نبتغي بهذا الكلام ثناءً من أحد ولا تزكيةً من أحد من سلطان أو غيره ، فوالله لو أردنا ذلك لكان حالنا غير ذلك الحال، فمساجدنا تؤخذ منا ويخطب فيها التكفيريون, هم الذين يعتلون المنابر وهم الذين ينتشرون في مساجد المسلمين في هذه الأيام، ولا نستطيع أن نُكمل بعض مساجدنا، أن نُكمل بناءها والله المستعان.

فأين نحن من العمالة التي نُتهم بها ؟ لا نُقدِم على هذه الأمور إلا من أجل النُصح للمسلمين، «وَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِهُدَاكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»، كما قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

فهذا الباب باب عظيم، وهذا الحديث حديث جليل، وكل أحاديث النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كذلك جليلة.

فنسأل الله عَزَّ وَجلَّ بأسمائه الحسنى وصفاته العلا أن يوفقنا لكل خير، وأن يسددنا، وأن يثبتنا وإياكم على الكتاب والسُنة وفهم سلف الأمة حتى نلقاه، وأن يُجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وإذا أراد فتنةً بقومٍ أن يقبضنا إليه غير فاتنين ولا مفتونين.

أسأل الله عَزَّ وَجلَّ أن يحفظ مصرنا وسائر بلاد المسلمين من كل مكروه وسوء، وأن يسدد ولاة أمورنا، وأن يرزقهم البطانة الصالحة التي تأخذ بأيديهم لكل خير، وأن يصرف عنهم بطانة السوء.

اللّهم من أراد مصر والإسلام والمسلمين بخيرٍ فوفقه لكل خير، ومن أراد مصر والإسلام والمسلمين بسوء فاجعل تدبيره تدميرًا، واجعل كيده في نحره، وأهلكه كما أهلكت عادًا وثمود, آمين آمين.

وصل اللّهم وسلم وبارك على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

أبو عائش
وفقه الله تعالى